عايدة .. جيوسيبي فردي

Giuseppe Verdi AIDA

في عام ١٨٦٩ تلقى الموسيقي الإيطالي المشهور «جيوسيبي فردي» Giuseppe Verdi عرضا سخيا من الخديوي إسماعيل لوضع ألحان أوبرا جديدة لدار الأوبرا المصرية احتفالا بافتتاح قناة السويس. وقد اشترط العرض أن تكون الأوبرا ذات طابع مصري، وتصادف أن كان في مصر أحد علماء الآثار الفرنسيين المشتغلين بدراسة تاريخ مصر القديم، فوضع قصة الأوبرا. ثم نظم كلماتها «كميل دي لوكل» Camille du Locle. وأخيرا نظمها شعرا بالإيطالية «أنطونيو غزلانتزوني» Ant nio Ghislanzoni. وقد قدمت لأول مرة على مسرح الأوبرا المصرية عام ١٨٧١، ثم على مسرح «لاسكالا» La Scala بميلانو ١٨٧٢.

شخصيات الأوبرا:

رمفيس: كبير الكهنة بمعبد ايزيس	Ramfis
راداميس: قائد الحرس المصري	Radamis
أمنيريس: ابنة فرعون ملك مصر	Amneris
عايدة: أسيرة حبشية وابنة ملك الحبشة	Aida

فرعون: ملك مصر Pharaoh

أموناسرو: ملك الحبشة ووالد عايدة Amonasro

رسول– كهنة– كاهنات– جنود– وزراء– أسرى أحباش

زمن الأوبرا: عهد الفراعنة

المكان: ممفيس وطيبة

الفصل الأول

المنظر الأول- القاعة الكبرى في قصر فرعون بمدينة ممفيس

قبل أن ترفع الستار عن الفصل الأول، تصور لنا المقدمة الموسيقية الصراع العنيف الذي سنشاهده بعد قليل، فإن «عايدة» هي قصة الصراع الرهيب بين الحب والواجب.. قصة الضابط المصري الشاب «راداميس» الذي وهب حياته لخدمه بلاده، ومنح قلبه لأسيرة من أعدائه!.. فقد أحب «عايدة» الحبشية التي أسرها الجيش المصري في إحدى معاركه مع الأحباش.

وترتفع الستار، فإذا «رمفيس» – كبير الكهنة – يتحدث إلى الضابط «راداميس» بين أروقة القصر:

رمفيس: لقد بلغني أن الأحباش يهددون طيبة من جديد، وقد اختارت الإلهة «ايزيس» قائدا شابا شجاعا ليصد عدوانهم. وها أنذا ذاهب إلى الملك لأعلن اسمه إليه.

ويغادر الكاهن المكان، فيبقى راداميس غارقا في تأملاته وأفكاره. ويحدث نفسه مغمغما: «ماذا لو وقع الاختيار علي؟!.. إنني سوف أعود إلى حبيبتي عايدة مكللا بالغار!»

ويظل راداميس تائها في أحلامه، فلا يقع بصره على «أمنيريس» – ابنة الملك – التي تدخل وتتأمله عن قرب. إنها تحبه، ولكنها تغار عليه وتخشى أن يكون قلبه لسواها:

أمنيريس: ما الذي يبعث فيك الابتهاج هكذا؟.. إنها لحظوظة تلك المرأة التي تستطيع أن تدخل عليك كل هذه السعادة!

وهنا يحدثها راداميس عن آماله وطموحه، دون أن يتبين أن كانت قد لاحظت عليه أن واقع في حب جاريتها الحبشية عايدة.

وفي هذه اللحظة تدخل عايدة وقد أفزعتها أنباء الحرب المرتقبة. ولكن أمنيريس تخفي مشاعرها لتقف على حقيقة العلاقة بين راداميس وغريمتها الأسيرة عايدة.

وينخرط الثلاثة في غناء ثلاثي «تريو» مؤثر، نتبين خلاله ما يدور في نفس كل منهم. فإن عايدة تعبر عن حبها الدفين، وأمنيريس عن غيرتها الضاربة، وراداميس عن خوفه من أن تفسد خططه الأميرة العاشقة.

وحالما يظهر الملك وقد أحاط به عدد هائل من الوزراء والحراس والأتباع. ويعلن رسول الملك قائلا:

«لقد أغار الأحباش على بلادنا، وهم في طريقهم إلى طيبة بقيادة ملكهم أموناسرو».

وتحبس عايدة صرخة كادت تفلت من بين شفتيها، فإنها وحدها تعلم الحقيقة الأليمة، وهي أن أموناسرو ملك الأحباش ليس سوى أبيها، وانه قادم ليحررها من الأسر.

ويتعالى صوت الشعب مطالبا بالحرب، فيعلن الملك أن الإلهة «إيزيس» قد اختارت الضابط راداميس ليكون قائدا للحملة المصرية، ثم يأمره بأن يتوجه إلى معبد «فولكان» ليتسلم منه «السلاح المقدس»، في حين تناوله أمنيريس «العلم الملكي» وتنشد له مشجعة:

«فلتعد لنا ظافرا!»، فيردد دعاءها عايدة وجماعة المنشدين.

ويخرج الجميع، فتبقى عايدة بمفردها تحدث نفسها بصوت متهدج حائر:

«لقد تمنيت لحبيبي أن يعود ظافرا.. أن ينتصر على والدي وإخوتي الذين يحاربون لإعادتي

إلى بلادي!.. أيتها الآلهة، ارحمي شقائي ودعيني أموت!»

ثم يرتفع صوتها بغناء شهي حزين.

المنظر الثاني: معبد «فولكان» بمدينة ممفيس

يرفع الستار عن المعبد وقد أضيئ بأنوار غريبة غير ظاهرة وأخذ دخان البخور يتصاعد حول المذبح الذي وقف أمامه كبير الكهنة «رمفيس» ينتظر قدوم راداميس. ويسمع صوت إحدى الكاهنات وهي تبتهل إلى «الإله بتاح القدير». ثم يبدأ رمفيس وكهنته يرتلون أناشيدهم الشجية، في حين تدور الكاهنات حول المذبح في خشوع وابتهال.

ويصل راداميس، ثم يقترب من المذبح حيث يضع رمفيس فوق رأسه غطاء من الفضة ويسلمه سيفا:

رمفيس: لقد عهدت إليك الآلهة بمصير البلاد. وهذا السيف المقدس الذي تحمله يداك، يجب أن يجلب الموت القاصف للأعداء

ثم تدوي أركان المعبد بصيحات النصر!

الفصل الثاني

المنظر الأول- غرفة أمنيريس بقصر الملك

تجلس الأميرة أمنيريس وحولها وصائفها يصلحن من زينتها استعدادا للاحتفال بعودة راداميس منتصرا من القتال. وإذ تظهر عايدة، تأمر الأميرة وصائفها بالانصراف ليخلو لها الجو للتحدث إلى الأسيرة الحبشية، لعلها تستطيع أن تستدرجها لتبوح لها بمكنون قلبها:

أمنيريس: إنني صديقتك يا عايدة، فاطلبي مني ما تشائين!

عايدة: وكيف يهنأ لي عيش وأنا بعيدة عن وطني، لا أعرف ماذا وقع لأبي وإخوتي؟!

فتقول لها الأميرة في خبث:

أمنيريس: إن الزمن كفيل بان يكلأ جراحك، والحب أكثر منه قدرة على ذلك!

وكأنما ضربت هذه العبارة أوتار قلب عايدة، فتشرع في الغناء. وهنا تتأكد أمنيريس من صدق حدسها، ولكنها تحاول أن تجري عليها اختبارا آخر فتزعم لها أن راداميس قد مات في المعركة!

فتجهش عايدة بالبكاء ثم تقول في أنين موجع: «إذن، سأبكى إلى الأبد!»

وتثور أمنيريس وتعلن صائحة:

"لقد اكتشفت سرك!.. إن راداميس ما زال على قيد الحياة، وغريمتك في حبه هي أنا ابنة الفراعنة!" وتسمع أناشيد النصر تدوي في الخارج، فتصيح أمنيريس مهددة متوعدة، في حين تبتهل عايدة إلى الآلهة أن تشملها برحمتها ورعايتها.

المنظر الثاني- مدخل مدينة طيبة

يغص مدخل المدينة بأفراد الشعب، ويمر موكب النصر بمعبد آمون ثم يتقدم أمام قصر الملك. وحالما يظهر الملك وحوله حاشيته ثم يعتلي العرش. وتتقدم منه أمنيريس وقد أحاطت بها الوصائف ومن بينهن عايدة، فتجلس بجواره.

وتمر القوات المصرية في عرض رائع أمام شرفة القصر، بينما تعزف الموسيقى أنغام النصر. وأخيرا يظهر راداميس بين صيحات الجمهور المدوية وقد استقل عربة فاخرة، وإذ يتقدم من العرش يعانقه الملك قائلا:

الملك: أيها المنقذ، إن مصر تحييك! فلتتقدم الآن من ابنتي لتمنحك «شارة النصر»!

وينحني راداميس أمام الأميرة فتتوج جبينه بإكليل الغار. ويواصل الملك قائلا:

الملك: اطلب مني ما تشاء أيها المحارب الشجاع، فسوف أمنحك كل ما تطلب في هذا اليوم!

راداميس: إنني أطلب من مولاي إن يأمر بإحضار الأسرى إلى هنا.

ويتقدم الأسرى الأحباش مصفدين بالأغلال، فتذهل عايدة عندما تلمح أباها بينهم. فتتقدم منه وتعانقه، ولكن «أمونا سرو»– ملك الحبشة– يطلب منها ألا تفصح عن شخصيته. وفي دهاء وسعة حيلة يتوسل إلى فرعون ملك مصر قائلا:

أموناسرو: لقد قتل ملكنا، وأصبحت أنت صاحب الكلمة العليا، فاشملنا برحمتك!

وتنضم عايدة وبقية الأحباش إلى أموناسرو في توسلاته لملك مصر. لكن الكهنة يرفضون طلبهم في إصرار، فيذكر راداميس الملك بوعده قائلا:

راداميس: إنني أطلب الحياة والحرية للأحباش!

وأخيرا يقترح رمفيس– كبير الكهنة– حلا وسطا: أن يبقى «أموناسرو» رهينة في أيدي المصريين. ويوافق فرعون على هذا الاقتراح فيعلن قائلا:

فرعون: إنني أوافق على هذا الرأي، ولكي نحتفل بالسلام، سأمنح راداميس يد ابنتي أمنيريس!

وتتعالى صيحات الابتهاج من الشعب عندما ينزل الملك من على العرش، وتتبعه أمنيريس في نشوة وزهو وبصحبتها راداميس، في حين ترتمي عايدة بين أحضان أبيها الأسير وتنخرط في البكاء.

الفصل الثالث

المنظر - ضفاف النيل

يلقي القمر أشعته الفضية الناعسة على ضفاف النيل، وينبعث من المعبد ترتيل الكهنة الخافت الحزين. ويدنو قارب من الشاطئ، ثم ينزل منه رمفيس وأمنيريس. ويقود كبير الكهنة الأميرة إلى داخل المعبد لتمضي عشية زفافها في الصلاة. ولا يكاد الاثنان يدخلان حتى تظهر عايدة وقد ألقت على وجهها خمارا كثيفا. لقد أتت لتلقى حبيبها راداميس سرا.

وتتساءل الأسيرة الحبشية: «ماذا عسى راداميس أن يقول؟.. أن كان سيأتي ليبثني الوداع، فسوف أنهى حياتي في أعماق النيل!».

ثم تشرع في غناء شهى رخيم وقد تملكها حنين غامر إلى بلادها:

«أيتها السماء الجلواء المشرقة، وأيتها التلال الزاهرة السامقة، وأيها النسيم العليل الساهم.. إنني لن أراك أبدا»

وفجأة تسمع وقع أقدام، وحالما ترى أمامها أباها الذي أدرك سر شقائها فجاء إليها بخطة لتخليصها هي وحبيبها. ويحدثها أموناسرو قائلا إن الأحباش يستعدون لرد عدوان المصريين، وكل ما يحتاجون إليه هو معرفة الطريق الذي سوف يسلكه الجيش المصري في هجومه عليهم، وما على عايدة إلا أن تعرف ذلك من حبيبها راداميس!

عايدة: إنك تطلب مني أن أخدع الرجل الذي أحبه... إنني لا أستطيع!

ويذكر أموناسرو وابنته بالمصير القاتم الذي آلت إليه بلادهما ويصيح بها غاضبا:

أموناسرو: إنك لست الآن ابنة ملك الحبشة، بل أسيرة ذليلة للفراعنة!

ثم يهدأ غضبه عندما تجثو عايدة أمامه راضخة، فيقول لها مستطردا:

أموناسرو: تشجعي، واذكري أن خلاص بلادنا سيتم على يديك. ولكن.. ها هو ذا راداميس قادم، فسوف اختفي أنا بين النخيل وأنصت إلى ما يقول!

ويقبل راداميس متهللا للقاء حبيبته، ولكن عايدة تستقبله في فتور:

عايدة: لماذا أتيت إلى هنا؟.. إن حبك من حق الأميرة أمنيريس!

راداميس: ماذا تقولين؟.. إنني لا أحب سواك!

عايدة: وكيف تعارض رغبات الملك والكهنة؟

راداميس: أنت تعلمين أن الأحباش سيغيرون من جديد على حدودنا. ولقد وقع الاختيار على لصد عدوانهم. فإذا قدر لي النصر هذه المرة أيضا، فسوف أطلب يدك مكافأة على حسن بلائي!

لكن عايدة لا توافقه على هذا الرأي وتقترح عليه أن يهرب معها، وإذ يرضخ راداميس لرغبتها تسأله:

عايدة: وأي طريق نسلكه لنتجنب رؤية الجيش لنا؟

راداميس: إن جيشنا لن يتحرك قبل الغد، وسيكون الطريق خاليا الليلة، فعلينا أن نهرب عبر مضيق «ناباتا».

وهنا يخرج أموناسرو من مكمنه ويكشف عن شخصيته معلنا:

أموناسرو: هنالك سوف أضع جنودي.. أنا– ملك الحبشة!

ولا يسع راداميس بعد أن تبين بشاعة جرمه إلا أن يتأهب للفرار!

ولكن صوتا يشق سكون الليل يأتي إليهم من أعلى درجات المعبد صائحا: خائن!

إنها أمنيريس التي كانت مختبئة وسمعت كل شيء!

ويهم أموناسرو بقتلها، ولكن راداميس يعترض طريقه ويطلب منه الإسراع في الهروب هو وابنته.

ويقبل كبير الكهنة على صوت الجلبة، فيتقدم منه راداميس ويسلم إليه نفسه قائلا:

راداميس: إنني لم أعد جديرا بقيادة الجيش!..

ثم يسلمه «السيف المقدس». وإذ يأخذه منه رمفيس تسدل الستار.

الفصل الرابع

المنظر الأول - قاعة المحاكمة

تمر الأميرة أمنيريس أمام مدخل القاعة بخطوات متثاقلة وقد تملكها يأس جاثم مرير. لقد تبخرت غيرتها ولم تعد تفكر إلا في حبها لراداميس والعمل على إنقاذه. وها هي ذي تنتظر مثوله بين يديها بعد أن أمرت الحراس بإحضاره.

ويقبل راداميس، فتتوسل إليه أمنيريس أن يعترف بجرمه ويطلب العفو. لكن راداميس الذي لم تعد له رغبة في العيش بدون عايدة، يرفض طلبها. فتردف الأميرة قائلة:

أمنيريس: إن عايدة لا تزال على قيد الحياة. فقد هربت بعد أن قتل جنودنا أباها. وأنا على استعداد لأن أتوسط لدى الملك ليعفو عنك إذا أقسمت لي بأن تتخلى عنها إلى الأبد!

لكن راداميس يرفض عرضها قائلا:

راداميس: إنني لم أعد أهاب الموت!

فتثور أمنيريس وتأمر الحراس بإعادته إلى زنزانته.

ويمر رمفيس وكهنته في طريقهم إلى غرفة المحاكمة، وحالما يلحق بهم راداميس. وتسمع أمنيريس الكاهن وهو ينطق بالحكم معلنا:

«راداميس! إنك ستلقى جزاء الخائن.. سوف تدفن حيا أسفل معبد الإلهة إيزيس التي خنت عهدها!»

وترتعد أمنيريس عند سماع هذا الحكم الصارم، فتتوسل إلى الكهنة أن يخففوا عنه الحكم. ولكن الكهنة يحدجونها بنظرة احتقار ويرفضون طلبها، وإذ يغادرون القاعة، تصيح أمنيريس وقد استبد بها الحزن ووخز الضمير:

أمنيريس: أيها الكهنة غلاظ القلوب، إنني ألعنكم!..

ثم ترتمي على الأرض مغشيا عليها.

المنظر الثاني - معبد فولكان

يقسم المسرح في هذا المنظر الأخير إلى طابقين: في أعلى يوجد معبد فولكان وقد ازدان بالنقوش الذهبية. وفي أسفل يوجد القبو المعتم الذي ينتظر فيه راداميس مصيره الرهيب. ويقبل كاهنان ويضمان حجرا فوق فتحة القبو فيحكمان إغلاقه.

ويجلس راداميس داخل القبو يناجي حبيبته الغائبة، فيقول بصوت خائر:

راداميس: أين الآن يا عايدة؟.. إنني أرجو ألا يكون قد بلغك مصيري!

وفجأة يسمع صوتا داخل القبو فيتملكه فزع شديد ويصيح: إنه شبح!

لكن عايدة لا تلبث أن تظهر أمامه وتعلن قائلة:

– بل هي أنا!.. وقد أتيت لأموت معك!

ويتسلل إلى القبو صوت خافت ضئيل.. إنهم الكهنة يصلون إلى «الإله بتاح القدير». وكأن هذا الصوت قد بعث في قلب راداميس حب الحياة لنفسه ولحبيبته، فيستجمع قواه محاولا رفع الحجر الذي يغلق القبو.. لكن دون جدوى! وتهدئ عايدة من روعه مواسية:

عايدة: لقد انتهى كل ما لنا على الأرض.. ولن تكف أحزاننا إلا بعيدا عنها!

ويستسلم الحبيبان لمصيرهما فينشدان: «وداعا أيتها الأرض.. وداعا يا موطن الأحزان!»

وإذ يتعانق الاثنان وهما يتأهبان الموت، تظهر أمنيريس في أعلى وقد ارتدت ملابس الحداد، ثم ترتمي فوق الحجر الذي يختم القبو وتطلب لروح راداميس السلام!

ستار